حقل البطيخ

بقلم : محمود البدوى

كانت قرية « العمارنة » مشهورة بحقول البطيخ .. وكانت تزرع اجود انواعه واحلاها على الاطلاق .

وتقع الحقول فى ارض رملية على سيف النيل .

وكانت الارض ملك الحكومة وتؤجرها لاحد الاثرياء بايجار قليل .. ولنفوذه وسطوته استغلها ابشع استغلال واخذ يؤجرها للفلاحين بعشرة اضعاف القدر الذى يدفعه ، وقسمها الى قطع صغيرة ليسهل عليه توزيعها على اكبر عدد منهم بايجار مرتفع .

وكان يسلط عليهم سوط العذاب فاذا تاخر احدهم عن السداد يوما واحدا حجز على المواشى والمحاصيل .. وفى كل مطلع النهار يرون وجه الصراف ودفاتره واوراقه .

وكان الامل يلوح فى افق حياتهم بعد كل ثلاث سنوات فيسمعون ان الارض ستؤخذ منه وتعطى لغيره . . . فيشعرون بقرب الخلاص .. ولكن الزمن كان يخيب آمالهم دائما فتعطى له الارض من جديد بمزاد صورى يعمل فى البندر .

وظللت الحال هكذا حتى يئس الفلاحون .

ولم يتنفسوا الصعداء الا بعد ان قامت الثورة وطرد هذا الثرى من الارض ... ووزعتها الحكومة عليهم فاعطت فدانين لكل اسرة .

وللمحظوظ منهم من وقع نصيبه فى الارض على الساحل .. لانه زرعها بطيخا والبطيخ يأتى للفلاح بدخل طيب .

وكانوا يبكرون فى الزراعة قبل ان يرتفع مستوى الماء فى موسم الفيضان فيأكل الزرع . ويجيدون تخطيط الارض ... فتبدو الحقول المزهرة فى خطوط مستقيمة .. كانها خطت بالمسطرة على لوح من الورق .

والمشاهد للمزرعة من المارين تحتها فى المراكب والصنادل كان يؤخذ بجمالها ويرى انها من المزارع النموذجية .

وكانت تمد الاسواق فى منطقة الصعيد باجود انواع البطيخ واعذبه حلاوة .

وكانت الكلاب الكبيرة تحرسها ولكل حقل خصه وكلبه .

ووراء هذه الحقول فى الارض العالية يقوم بستان كبير من شجر النخيل والنبق والسنط .. وخلف هذا الجسر العمومى ..

ومن الجسر تاتى العربات وتحمل البطيخ الذى يتكوم فى طرف من البستان .. كان بمثابة السوق لهؤلاء الفلاحون وفيه يتعاملون مع التجار ...

وفى شهر يونيه من كل عام يبدا قطف الثمار الناضجة.. فترى الفلاحين فى الصباح مبعثرين فى الحقول .. وايديهم تضرب على البطيخ قبل قطعه من العريش فاذا استوى فى نظرهم ..

وتحت سمعهم بعد جسه باليد .. قطعوه وكوموه .. وحمله الصبيان على ظهور الحمير والجمال الى الجسر .

وكانت القرية على مبعدة ثلاثة فراسخ من المزرعة ..

وتبدو فى موسم البطيخ مهجورة .. لان الحياة كلها تتحول الى جانب النهر ..

***

وكان حقل عبد الغفار يأتى بأجود المحاصيل اطلاقا فى هذه المنطقة ..

وكان عبد الغفار يزرع البطيخ والشمام عن خبرة ويقصر زراعته عليهما فاشتهر بهما واجاد .. وكان ودودا وطيب القلب وأمينا ويتفانى فى خدمة الناس.. فأحبه الفلاحون وعهدوا اليه محاسبة التجار واخذ الثمن منهم وتوزيعه عليهم كل حسب حصته .

وكان له اربعة من الابناء الاشداء اصغرهم فى العشرين من عمره وفيهم كل صفاته فساعدوا والدهم فى عمله وجعلوا «خصه» اجمل خص فى المزرعة .. وبمثابة منتدى للفلاحين جميعا ..

فكانوا يتجمعون حوله فى العصارى .. ويتحدثون فى شئونهم ومشاكلهم .. وهم يشربون الشاى ويدخنون السجائر أو يفتلون حبال الليف أو يعملون المرابط والشواغل .. للجمال .. استعدادا لعمل الشتاء .

وكانت الطبيعة تجود على المكان باجمل المناظر الطبيعية .. فالنيل يجرى كاللجين تحت اقدامهم والسماء الزرقاء الصافية فوقهم .. والشمس ترسل شعاعها الاصفر على المزارع .. وعلى صفحة الماء .. فتحول كل شىء الى لون العسجد..والطيور والعصافير .. تحلق فى الجو .. وتغرد ..

والكلاب تتوثب وتتمرغ على الرمال الناعمة .

ويبدو الجميع كانهم فى عيد ... وموسم البطيخ فى الواقع عيد الاعياد لهؤلاء المزارعين .. فالنقود تجرى فى ايديهم .. ويشترون المواشى والملابس الزاهية .. والمراكيب الجديدة .. والمذارى والفؤوس .. ويصلحون النوارج والمحاريث ...

***

وعلى الرغم من أن القرية آمنة واهلها مشغولون بمعاشهم .. ولكن الفلاح فى كل هذه المناطق يحمل السلاح .. فالبندقية السريعة الطلقات حلت محل الهراوة والنبوت .. لانه يسوق مواشيه وحده فى الليل .. ويعود بها من السوق .. ويحرس بها الاجران والاقطان ..

***

وفى عصر يوم تجمع حول خص « عبد الغفار » نفر من الفلاحين كعادتهم واخذوا فى فنون الاحاديث عن التقاوى

الجديدة .. التى زرع منها عمار فى هذه السنة نصف فدان ... فانت بيطيخ كبير الحجم ولكنه قليل الحلاوة.

وعن عليان الذى شق بطيخة وتركها فى الشمس .. ثم ذهب لبعض شانه .. ولما رجع وجد البطيخة باردة كانها مثلجة وعذبة المذاق جدا .. ولكنه وجد تعبانا كبيرا يحاول الاقتراب منها .. !

فمثل هذا البطيخ تحبه الثعابين الى درجة شديدة .

واخذ كل واحد من الموجودين يروى رواية عن حب الثعبان للبطيخ وكيف يلعقه بلسانه بلذة وشغف .. حتى تعددت الروايات عن الثعابين وجاوزت المائة ..

وفجاة ظهر شىء جديد فى الافق شخصت اليه الابصار ... شىء بدا كانه يسبح فى الجو .. ظهر جواد احمر كان ينطلق فى الطريق الزراعى فى سرعة الريح .. وبدت قوائمه من فرط سرعته كانها لا تمس الارض .

وكان راكبه منتصبا فوقه فى سكون .. ومرتديا جبة كحلية ولبدة بيضاء.

ويبدو من جلسته على الحصان فارسا من امهر الفرسان على الخيل ومال به عن الطريق واتجه فى السيف الصغير المفضى الى حقول البطيخ .

وظلت العيون معلقة به حتى اقترب وهو يهدىء من سرعة الجواد ..

ولما اصبح الفارس حذاء الخص عرفوا انه غريب.. ودار دورة بالفرس ثم ترك اللجام وترجل .. ومشى اليهم .. وصافحهم فردا فردا .

ثم اخذ مجلسه بجوار عبد الغفار.. الذى رحب .. وقدم الشاى والسجائر لضيفه .. واخبره الفارس عن المهمة التى جاء من اجلها .. اذ انه يرغب فى مقابلة فلاح يدعى محفوظ له حقل فى فى هذه المزرعة لمسالة تتعلق بقطعة ارض اخرى وراء شريط السكة الحديد .

وارسل عبد الغفار ابنه عثمان على جحش على التو لياتى بمحفوظ من البستان ... وظل الجواد فى مكانه وجلده يلمع فى الشمس ..

وكان يحرك راسه الجميل وينظر الى ناحية الذ.. .. ثم يعود يرد البصر الى الحقول .

وعيون الفلاحين معلقة به اكثر من نظرها الى الفارس الذى يركبه ..

وازاح الفارس كوفية حريرية بيضاء عن عاتقه ووضعها على الحرام الذى جلس عليه متربعا .. وهو ينفض المكان بعينيه النفاذتين ..

كما ترك بندقية قصيرة فى الجزء الامامى للسرج .

وربض كلبان من كلاب الفلاحين المتوحشة .. امام الجواد كانهما يحرسانه من العيون المحدقة به ..

وجلس الفارس يتحدث وعيناه على البطيخ الناضج والمزرعة التى تبدو كاحس المزارع التى شاهدها فى حياته .

***

وبدا الجو رغم اقتراب الاصيل وانحدار الشمس خانقا وشديد الحرارة .. ولكن الفلاحين اعتادوا على مثله وعلى ما هو اشد منه وطأة ..

وكانوا يحتمون فى الظل .. اما الذين كانوا لا يزالون فى قلب الحقول الى تلك الساعة فكانوا يكتفون بعصب رءوسهم اتقاء لضربة الشمس الحامية ..

***

وكان عرقهم وتحرك عضلاتهم مع الفئوس يقيهم كل ما يصيب الانسان من الجو الحار ..

وكانت الحرارة الشديدة قد جعلت المواشي تبترد على شط النيل اوتحتمى من الهجير بظل البستان .

وظلت الكلاب وهى الوحيدة التى تلهث فى الشمس .

وشق عبد الغفار لضيفه وللجالسين بطيختين كبيرتين ..

واخذوا ياكلون قطع البطيخ بشهية.

وقال « حماد » وهو ينظر للجواد وكان يحب الخيل ..

ـ هل اشتريت هذا الجواد حديثا ؟

ـ لا ... انه من نتاج فرس فى بيتى ..

ـ كم هو جميل .. اعربى ؟

ـ اجل .. وعربى اصيل .. وامه اطلق عليها جواد الشيخ عمران .. وهو اشهر جواد عندنا .. جواد رفض صاحبه أن يبيعه للسباق .. رغم مغالاتهم له فى الثمن ليغروه على البيع.

ـ ولماذا رفض .. فى امكانه أن يشترى غيره .. ؟

ـ ولا شك انك تعرف ان الجواد الاصيل نادر الوجود فى هذه الايام .. فالجياد تنقرض .. كما ترى نحن فى عصر الآلة ولم يعد هناك سامر .. ولا دف ترقص على وقعه الخيل .. كما كان الحال فى الريف منذ خمسين او مائة سنة .. لا يوجد الآن الفراغ الذى كان فى الماضى .. والحياة تدور بسرعة ونحن نجرى فيها باسرع مما كان .. والجواد لطول العشرة يصبح قطعة من جسم صاحبه ..

ـ وجوادك هذا الا ترغب فى بيعه ؟

ـ ما فكرت فى هذا قط ..

ـ حتى ولو اعطيت فيه ثمن سيارة.؟

ـ وما نفعى من السيارة .. ان هذا الجواد صديقى ورفيق الطريق فهل ابيع رفيقى بسيارة ..

انتى عندما امسح بيدى على كاهله .. واراه يهتز فرحا احس بانني اضع كفى على الدنيا باسرها ..

ـ أترقص به فى الموالد .. ؟

ـ افعل به كل شىء .. كل ما يخطر لك على البال .. واركبه بسرج ومن غير سرج .. وبلجام ومن غير لجام .. وامضى به فى الليل المظلم وفى وضح النهار .. وفى النار الموقدة .. وفى النسيم العاطر .. واتخطى به الجداول .. وأعبر القنوات ...

وهو يعرف بمجرد ان اضع جسمى على ظهره ما اطلبه منه .. دون ان احثه على الاسراع او التبختر ..

فهل هذا الجواد يباع .. ؟

ـ ابدا .. ولو بكل ما فى الدنيا من ذهب ...

وكان الجواد قد مد راسه نحو الحشائش .. فنهض الفارس وازاح عنه السرج .. واللجام .. وتناول من السرج البندقية .. وامسك بها فى يده وجلس مكانه .. وقدم ابن عبد الغفار بعض العلف للجواد .. فارخى راسه واخذ ياكل ..

واستغرق الجالسون فى الحديث.. حتى مالت الشمس للمغيب ثم تنبهوا على صوت الجواد وهو يصهل .. وتلفتوا فوجدوا ثعبانا ضخما يزحف عليهم .

ووثب الفلاحون من مكانهم . .

وتناول كل منهم فاسا واحاطوا بالثعبان ..

وتقدم عبد الغفار اليه رافعا الفاس .. وحاول ضرب الثعبان فى راسه .. ولكن الثعبان رواغه وخابت الضربة واضطرب الجميع .

وزاد الامر خطورة ...

ولما شعر الفارس بخطورة الموقف وحرجه .. تناول بندقيته سريعا واطلق على راس الثعبان فاصابه فى مقتل .

وجر احد الفلاحين الثعبان بحبل والقاه بعيدا عن المكان ..

وعادوا لحديثهم .. كان لم يحدث شيء .

***

واستمروا فى سمرهم .. حتى مضى جزء من الليل .. ولأن محفوظ كان قد ذهب الى السوق ولم يعد حتى بعد صلاة العشاء .. فقد استبقى عبد الغفار ضيفه الى الصباح .. لينجز المسالة التى جاء من اجلها .

ورضى الفارس أن يبقى وتعشوا وفرشوا له خارج الحصن فى العراء لأن الحرارة كانت لاتزال شديدة .

وناموا جميعا مثله فى العراء ..

وبقيت الكلاب وحدها ساهرة فى المزرعة ..

ولاحت النجوم متالقة فى السماء .. ولكن القمر لم يطلع بعد ..

وفى الصباح استيقظ عبد الغفار قبل ضيفه ودار حول الحقل كعادته .

وعندما رجع الى الفارس وجده لايزال نائما .. ووجد على قيد ذراع منه شيئا افزعه واجرى الرعشة فى بدنه .. وجد ثعبانا ضخما ميتا .. ولما امعن فيه البصر عرف ان حوافر الجواد دكته بعنف وخمن انه انثى الثعبان الذى قتله الفارس فى ساعة الغروب .. خرجت الحية الرهيبة لتنتقم .. وكان الجواد فى مكانه يصهل .. ولم يكن عبد الغفار يدرى الدغت هذه الأنثى الجواد قبل أن تموت أم لا .. ولكنه كان يعرف أن الجواد قد تغلب بقوته وذكائه على الشر .. وحتى السموم سيتغلب عليها ..

وكانت نظرة الجواد الى صاحبه النائم .. تدل على انه فعل شيئا كبيرا .. من اجله ... فى الظلام ... شيئا لم يحس به انسان ...